

أسرار المتقدم الآسيوي

تأملت طويلاً في أسرار تقدم بلدان جنوب وشرق آسيا بتلك المعدلات العالية، التي أصبحت مضرب المثل في مجال التنمية، وموضع الدهشة من البلاد الغربية، وكذلك نموذجاً للمقارنة مع البلاد العربية التي سعت إلى التقدم في نفس الوقت الذي سعت هي الأخرى فيه، بل ربما قبلها بعشرات السنين.

وسوف أعرض هنا لعدد من العوامل وراء نجاح هذه البلاد، وفي مقدمتها أن شعوبها تقدس العمل. ولما تركن كثيراً لأحلام النوم أو أحلام اليقظة.

ومن أهم ما يميز الشعوب الآسيوية أنها قليلة الكلام، وبالتالي فهي قليلة الجدل حول أمور لا تقدم ولما تؤخر، والدليل على ذلك أنها لم تضيع وقتاً طويلاً في كيفية البحث عن وسائل التقدم.

وإنما ركزت على مجال واحد هو مجال المحاكاة ، أى تقليد النماذج الناجحة فى كل الميادين . فقد قلدوا صناعة السيارات الغربية حتى تفوقوا عليها ، كما قلدوا أساليب الزراعة المتطورة حتى برزوا فيها ، ولأنهم بطبيعتهم تجار مهرة فقد استطاعوا أن يسوقوا ما ينتجونه ، سواء على المستوى المحلى أو العالمى . وهنا سر يقف وراء تفوقهم يرجع إلى احترام مكانة كل شخص ووظيفته .

وقد يقال أن فى ذلك نوعاً من التطبيقية الاجتماعية، ولكنها عند التحليل عبارة عن تطبيقية ديمقراطية بمعنى أن كل فئة من فئات المجتمع تعرف وظيفتها جيداً ، وتكرس جهودها للإتقان فيها دون الانشغال بأحوال ومكاسب الفئات الأخرى .

وكأنهم بذلك يسرون على المبدأ الموجود عندنا (كل ميسر لما خلق له) . فى ماليزيا مثلاً توجد أعراق متنوعة ، ومع ذلك لا يتدخل أحد فى عادات الآخر وتقاليده ومعتقداته . فالكل مواطنون يعملون ويتعايشون وينعمون أخيراً بنتائج أعمالهم . الأمر اللامفت للنظر بحق هو المحاولة المستمرة للإتقان ، دون كثرة الحديث عنه . فالمنتجات الزراعية تم تطويرها على نحو مذهل ، وكذلك المنتجات الصناعية والإلكترونية .

وهناك تزاوج بين الجامعات ومراكز البحوث وبين مؤسسات الإنتاج من أجل تحسينه ، وحل ما يعترضه من مشكلات . كما أن تشجيع المشروعات الصغيرة يسير جنباً إلى جنب مع المشروعات الكبرى أو العملاقة التى لا تقدر عليها سوى الدولة . المصانع اليدوية الصغيرة منتشرة فى البيوت . والأسرة بكل أفرادها تعمل : فهناك من يشتري الأدوات الأولية ، وهناك من يقوم بتصنيعها ، وهناك أيضاً من يقوم بتسويقها . ولما تحس بأن قبضة الحكومة على هذه المشروعات الصغيرة قوية أو غائبة ، وإنما هى متروكة للعرض والطلب .

والواقع أن الطلب متزايد ، والمعرض مستمر فى محاولة الجودة والإتقان . كنا فى الماضى لا نثق إلا بالإلكترونيات التى تصنع فى اليابان ، ثم ما لبثت الصين وكوريا أن أصبحتا منافسين لها ، وأخيراً دخلت إندونيسيا وماليزيا وتايوان ..

هل تعلم مثلاً أن منتجات هذه الأخيرة التي أغرقت العالم والبلاد العربية يتم تصديرها بدون وزارة للتجارة الخارجية ، وإنما من خلال محلات ومصانع صغيرة للغاية ، يتواجد فيها تجار يعطون كل زيون ما يحتاج إليه ؟ !

الطبيعة جميلة جداً في بلدان جنوب شرق آسيا . كما أنها أحياناً قاسية ببراكينها وزلازلها وفيضاناتها المدمرة ، ولكن الإنسان استطاع أن يعيش فيها ويتعايش معها ، وأن يبني حضارة متميزة ، أصبحت محط أنظار السياح في العالم .

سألني صديقي : باختصار ما هي أهم عوامل تقدم هؤلاء الناس ؟ قلت له : يعني تريد من الآخر ؟ قال : أجل . قلت : قلة الكلام ، والعمل المتواصل ، والإتقان . وبالمناسبة من أهم ما لاحظته عندهم هو عدم وجود مذيعة ربط في التلفزيون !!